حكايات صينية



النّهرُ الأحمَر

دار المعارف بمصر

حكايات صينية

مجموعة من الحكايات الشائقة اللطيفة التى تصور للناشئة العربية بلاد الصين وأخلاق أهليها وجوانب من معايشهم ومجتمعاتهم ونوادرهم ولطائفهم .

● صدر منها :

دار المعارف للطباعة والنشر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة – ٣ شارع ماسبيرو – القاهرة

حكايات صينيّة

١

النهر الأحمر

للأساتذة

محمد أحمد برانق   حامد محمد سليمان

تان سومين

湯壽民

دار المعارف بمصر

٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

١

مُنذُ زَمنٍ قَديمٍ كانَ يعيشُ صَبيٌّ اسْمُه « بُوتُون » .

لِماذا سُمِّيَ الصبيُّ بهذا الاسمِ الغريبِ ؟ !

السَّببُ أنَّ الغُرْفةَ التى وُلِدَ فيها هذا الصبيُّ كانَتْ لها نافِذَةٌ تُطِلُّ عَلَى شَجرَةِ قاوُون ، وَشَجرَةُ القاوُونِ ضَخْمَةٌ ، وَثمرُها كبيرٌ ، فوَقعَتْ ثمرَةٌ كبيرةٌ منْ ثِمارِ هذهِ الشَّجَرةِ على الأرْضِ أَحْدثَتْ هذا الصَّوْتَ — بُوتُون — وَكانَ ذلكَ فِى اللَّحظَةِ التى خَرجَ فيها هذا الطِّفلُ إلى العالَمِ ، فأسْمَتْهُ أُمُّهُ « بُوتُون » .

كانَ وَالِدَا « بُوتُونَ » يَسْتأْجِرانِ قِطْعَةَ أرْضٍ منْ مالِكٍ

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

غَنِيّ ظالِم، وَقدْ أَطْلَقَ عليْهِ النَّاسُ لِظُلْمِهِ اسمَ « شارِبِ الدِّماءِ »، وَكانتْ هذهِ القِطْعةُ منَ الأرْضِ عِندَ سفْحِ الْجبلِ الأزْرقِ، وكانَ الوالِدانِ يعيشانِ معَ وَلَدِهما فى هذهِ الأرْضِ، وكانتْ حياتُهُمَا شاقَّةً، ولا يكادانِ يجِدانِ القُوتَ، وكثيرًا ما اضْطُرَّا لِأكْلِ قُشُورِ الشَّعيرِ والأعْشابِ البرِّيَّةِ . . . وفى هذهِ الظُّرُوف نَمَا الطِّفلُ وَصارَ شابًّا.

وَذاتَ يَوْمٍ أَرادَ « شارِبُ الدِّماءِ » أنْ يَبْنِيَ منزِلًا جديدًا، فَأَمَرَ الوالِدَيْنِ أنْ يعْبُرَا النهر، وأنْ يَنْقُلا الْحِجارَةَ والْجِيرَ فى القارِبِ منَ الشَّاطِئِ الآخَرِ. وكانَ « شارِبُ الدِّماءِ » يُرِيدُ أنْ يَنتهيَ العَمَلُ سريعًا، ولِذَلِكَ وَضعَ فى القارِبِ كثيرًا جدًّا منَ الْحِجارَةِ، وعِنْدَما بلغَ القارِبُ وَسطَ النهْرِ قلبَتْهُ فَجْأَةً مَوْجَةٌ عاتِيَةٌ شَديدة، فَغَرِقَ القارِبُ بما فيهِ ومَنْ فيه.

سَمِعَ « بُوتُون » هـذا الْخَبرَ وَهُوَ فى بَيْتِه، فَأَسرعَ إلى النَّهرِ — وكانَ سَبَّاحًا ماهِرًا — وَقَذَفَ بنفْسِه فى المـاء،

وَأَخْرجَ وَالِدَيْهِ منَ القاعِ، ولٰكِنْ بعدَ أنْ ماتَا وَتصلَّبَ جِسماهُمَا . . .

ذَهبَ « بُوتُون » إلى « شارِبِ الدِّماءِ » وهُوَ يَبْكِى، وقالَ لَهُ :

أرْجُو أنْ تُعْطِينى بعضَ المالِ حتَّى أَسْتَطِيعَ دَفْنَ وَالِدَيَّ !

وحَمْلَقَ « شارِبُ الدِّماء » فى « بُوتُون » بِعيْنَيْ خِنْزِيرٍ، وَصاحَ فِيهِ :

لم يَكُنْ أَبُوكَ وأُمُّكَ حَرِيصينَ وَهُمَا يَقُودانِ القارِبَ، وقدْ سَبَّبَا لِي خَسارةً كبيرَةً، بسببِ ما فقَدْتُ منَ الْحِجارة ! يَجِبُ أَنْ تَشْكُرَنى لِأَنَّنى لم أُطالِبْكَ بتَعْوِيضى عمَّا فَقَدْتُ ! أَلا تَخْجَلُ منْ مَجِيئِكَ إلَيَّ وَمُطالَبَتِى بِمالٍ ؟ ! اُخْرُجْ . . !

قالَ « بُوتُون » :

إذَنْ، أَرْجُوكَ أَنْ تُقْرِضَنى بعضَ المال !

فَكَّرَ « شارِبُ الدِّماءِ » قليلًا ثُمَّ قال :

حَسناً ! سَأُقْرِضُكَ بعضَ النُّقودِ ، عَلَى أنْ تَرُدَّها إلىَّ مُضاعَفةً فى العامِ القَادِمِ !

اقْتَرَضَ « بُوتُون » النُّقودَ ، وعادَ فَدَفَنَ والِدَيه وهُوَ يَبْكِى . . .

٢

وَمَضى عَامٌ !

وَذَاتَ يَوْمٍ جاءَ « شارِبُ الدِّماءِ » ، مُنْتَفِخَ الأَوْداجِ ، مُسْرِعَ الخُطا ، يَتْبَعهُ خادِماهُ . . .

لَقدْ جاءَ لِيَسْتَرِدَّ دَيْنه . . .

ولٰكِنْ . . . كيفَ يستطِيعُ « بُوتُون » أنْ يَرُدَّ الدَّيْنَ ؟

لقد انْتَهى الأمرُ بأنِ استوْلَى « شارِبُ الدِّماءِ » على مَسكَنِه ومَتاعِه ، وَطَردَ « بُوتُون » ، فخَرجَ صِفرَ اليَدَيْن ، لا يَمْلِكُ غيرَ ثَوْبِهِ الذى يَلْبَسُه ، فقَصدَ إلى قبرِ وَالدَيْهِ ، وَانحَنى على القبْرِ وَأَخذَ يُنادى أَبَوَيهِ وَيَبكى !

وبعدَ فتْرةٍ غادَرَ القبْرَ ، وَانطَلقَ يسيرُ ويسيرُ . . . إلى أيْنَ يذْهَبُ ؟ لا يَدْرِى !

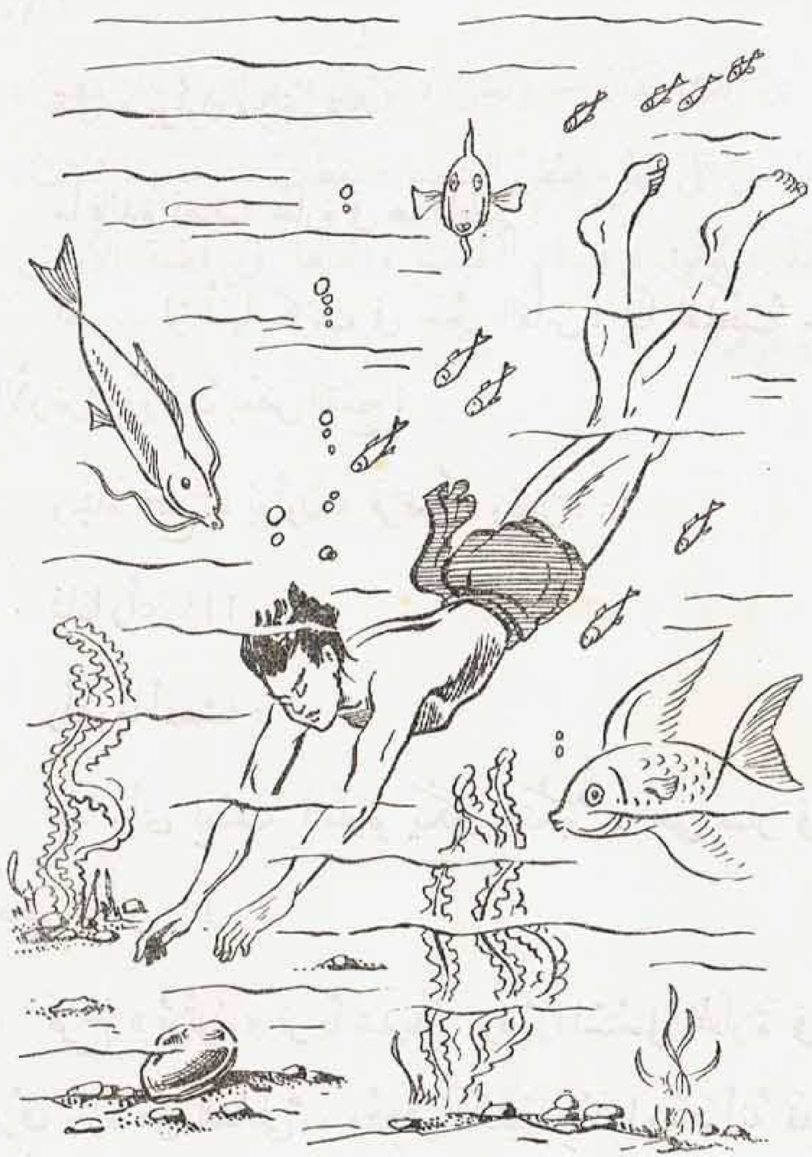
وفجأةً خطرَتْ ببالِهِ فِكْرةٌ :

إنَّ الْحِجارَةَ قدْ غرقتْ فى النَّهر ، ومنَ المُحْتَمل أنَّهُ لَمْ يُخْرِجها أَحدٌ حتى الآنَ ، إنَّنى أُجيدُ السِّباحةَ . . . لماذا لا أَغُوصُ فى الماءِ ، وأُخْرِج بعْضَ هذهِ الحجارة وأَبيعُها لِأعيشَ بثَمنِها ؟؟!

اتَّجهَ « بُوتُون » نحْوَ النَّهر ، وَسَبحَ إلى المكانِ الذى غَرِقَ فيهِ القَارِبُ ، وَهُناكَ غاصَ فى الماءِ فلمْ يَجِدْ شيئاً . . .

إنَّ « بُوتُون » لم يَكُنْ يعلمُ أنَّ أحدَ رجالِ «شارِب الدِّماء» قدْ أخرجَ كلَّ الْحِجارةِ منْ قبلُ . . . وَوَقعَ نَظرُ « بُوتُون » فجْأَةً على شىءٍ يَبْرُقُ تحْتَ الماءِ ، فأسْرَع وَقبضَ عليْهِ بيدِهِ ، ثُمَّ خرجَ إلى الشَّاطئ .

جلسَ « بُوتُون » عَلَى شاطئ النَّهر ، وأَخذَ يتأمَّلُ هذا الشَّىءَ الذى كانَ يَبْرُقُ تحتَ الماءِ . . . لقدْ كانَ شقَّ مَحارةٍ فى حَجمِ اليَد .



ووقع نظر « بوتون » فجأة على شىء يبرق تحت الماء

قالَ « بُوتُون » لِنفْسه :

مَا فائدةُ نصفِ محارة فى هذا الحجم ؟

آه . . . لوْ أنَّها كانت فى حَجْمِ الفَأْس ! إذًا لَفَلَحْتُ بها الأرضَ وزَرعْتُ بعْضَ القمْح !

وفجْأةً سَمِعَ « بُوتُون » قَرْقعةً ، وَنظَرَ . . !

فماذا رأى ؟ ! !

رأى ما أدهشه :

لقدْ رأى نِصْفَ المحارَةِ يَكْبَرُ ويَكْبَرُ ، حتى صارَ فى حجمِ الفأْسِ ! !

فَرِحَ « بُوتُون » فرحاً شديدًا ، وَفوْرًا استْعْملَ المحَارَةَ فى عَزْق جُزْءٍ منَ الشَّاطئ ، ودُهِشَ كثيرًا عِنْدَما وجَدَ أنهُ قَدِ استْطاعَ أنْ يعْزِقَ فى فَتْرَةٍ قصيرةٍ ما يَقْرُبُ منْ « مو » ،

— أَىْ ثُلثِ فَدَّان — وَنظرَ « بُوتُون » فرأى رجُلًا يسيرُ ، وقدْ حَمَلَ عَلَى ظهْرِه بعْضَ القمْح ، فسقطَتْ منهُ حبَّاتٌ ثلاثٌ ، فأخَذَ « بُوتُون » هـذهِ الحَبَّاتِ وأَلْقَاهَا فى قِطْعةِ الأرْضِ التى عزَقَها . . .

٣

أَقبلَ اللَّيْلُ وليسَ لَدَى « بُوتُون » مكانٌ ينامُ فيهِ ، وجلسَ يُقلِّبُ المحارَةَ فى يدَيهِ ويقُولُ لِنفْسِه :

لَوْ أنَّ هذهِ المحارَةَ كانتْ فى حجْمِ القارِبِ لكانَ الأمرُ أَجْمَلَ ؛ وَلَقَلبْتُها حينئذٍ وَنِمْتُ تحتَها !

وما إنِ انتهَى « بُوتُون » من كلامِه حتى سَمِعَ قَرْقعةً ، ونظرَ فرأَى أن المحارةَ قد أصبحتْ فى حَجْمِ القارب .

قلَبَ بُوتُونُ المحارةَ على الأرض ، ثمّ زحفَ حتى صار تحتَها ، ونامَ وهو يُحِسُّ السعادةَ تَغمُرُه .

وعرَفَ « بُوتُونُ » مُنذُ هذه اللحْظةِ أن تلك المحارَةَ كنزٌ ، وأنها يُمكنُ أن تكونَ كبيرةً أو صغيرةً .

وفى الصباحِ التالى اُسْتيقَظَ « بُوتُون » وخَرَجَ من تحتِ المحارَةِ ، وكانتْ هنالكَ مُفاجأَةٌ أُخرى تَنْتَظِرُه : لقدْ رأَى كثيرًا

من عِيدانِ القمْحِ قد نَبَتَتْ فى الأرضِ التى عَزَقَها أمْس ، وكان كلُّ عُودٍ منها مَلِيئًا بحبَّاتِ القمْحِ الذَّهبيةِ .

أَخَذَ « بُوتُون » يَتحسَّسُ عِيدانَ القمْحِ قائلًا :

لَنْ يُقلقنى أَمْرُ الطَّعامِ بعدَ الآن . . وانطلقَ يَضْحَكُ مَسرورًا ، وفكَّر : إنَّ هناكَ أشخاصًا كثيرينَ يُقاسُون وَطْأَةَ الْجُوعِ مِثْلى ؛ سَأُوَزِّعُ هذا القمحَ عليهم ، وأَستطيعُ أن أَزْرَعَ مرّةً أخرى . ولكنْ . . . ليسَ عندى سَلَّةٌ أَحْمِلُ القمحَ فيها . . .

واقترَبَ « بُوتُون » من القاربِ ، وقال :

مَحارتى الجميلة . . . مَحارتى الجميلة
انكمِشى وصيرى . . . كسَلَّةٍ صغيرة

ولم يَلبثْ « بُوتُون » أن سَمِعَ قَرْقعةً ، ورأَى المحارةَ قد تحوّلتْ سَلَّةً صَغيرةً ، فحَمَلَها بيدِه ، ومضى ليَجْمعَ القمحَ !

كان « شارب الدماء » يمر فى ذلك الوقت ومعه خادماه ، فوقع نظره على « بوتون » وهو يجمع القمح ، فصاح :

هيه . . . ! هذه الأرضُ لى . . . لماذا تجمعُ قمْحى ؟

أَغْضَبَ هذا القوْلُ « بُوتُون » ، فدقَّ الأرضَ بقدَمِه ، وصاح غاضباً :

لك ؟ ! هذه الأرضُ أنا الذى فلَحْتُها ! أتريدُ أن تستوْلِىَ على أرْضى مرّةً أخرى ؟ ! ألَمْ يكْفِكَ ما شرِبْتَ من دِماءِ الفقراء ؟ !

لقدْ فقدَ « بُوتُون » الهادئُ الصامتُ صَبْرَه ، ولَمْ يَعُدْ يستطيعُ احتمالا ، ولكنَّ « شاربَ الدماء » كان قد تعَوَّدَ أن يُطيعَه الناسُ جميعاً ، وكانتْ هذه هى المرّةُ الأولى التى يرَى فيها إنساناً يُعارضُه . . . فاشتدَّ غضَبُه واحتقَنَ وجهُه حتى صار كَكبِدِ الخنْزيرِ ، وصاحَ بخادمَيْه :

هذا الرّجُلُ سرَقَ قمْحِى ، وعامَلَنى بوَقاحةٍ . . . قيِّداه ، وألْقِيا به فى النهْرِ !

أَسرعَ الخادِمان ، وفكّا حِزامَيهِما ، واتّجها نحوَ الشّابِّ ،

وفى هذا الوقتِ قال « بُوتُون » بِصَوْتٍ مُنخفِضٍ للمَحارةِ :

محارتى الجميلة . . . محارتى الجميلة

انكمشى وصيرى . . . كسِنٍّ صغيرة

وفى الحالِ انكمشتِ المحارةُ ، وأصبحتْ صغيرةً كالسِّنِّ ، فأسرعَ « بُوتُون » وخبّأها فى أُذُنِه .

ولَمْ يلحظِ الخادِمانِ المحارةَ وهىَ فى أُذُنِ « بُوتُون » ، لاشتغالِهما بشَدِّ وَثاقِه ، وبعد أن ربَطا يديْه ورجْليْه بإحكامٍ حَمَلاهُ إلى النَّهْرِ . . . ومع هذا الصَّوْتِ « بُوتُون » . . كان « بُوتُون » قد أُلقِىَ فى الماء .

كان هذا الوقتُ هو موْسِمُ فَيضانِ النهرِ ، فحمَلَ التّيّارُ القَوِىُّ « بُوتُونَ » إلى البحْرِ .

وكانتِ المحارةُ تُرْسِلُ — وهىَ فى أذنِ « بُوتُون » — أشِعَّةً ذهبيةً ، كانتْ تصنعُ « لبُوتُون » طريقاً أينما سقطتْ ، ولكنه لم يكنْ يستطيعُ أن يُحرِّكَ يديه أو رِجليْه ، بل كان

يستطيعُ أن يتدحرجَ فقطْ على هذا الطريق .

رأى « بُوتُونُ » وهو يتدحرجُ فى قاعِ البَحْرِ حديقةً ، فمالَ نحوَها ؛ وهناك أَبْصرَ — تحتَ شجرةٍ من أشجارِها — سيِّدةً فى مُنْتَصفِ العُمْرِ ، تلْبَسُ ثياباً بديعةً ، وتُزيِّنُ شَعْرَها بكثيرٍ من اللآلئ والأحجارِ الكريمةِ . . . كانتِ السيِّدةُ تبْكى فى حُزْنٍ شديدٍ ، وكانتْ دُمُوعُها تتحوّلُ لآلئَ بيضاءَ لامعةً بمجرّدِ وُصولِها إلى الأرضِ .

وسألَ « بُوتون » السيِّدةَ :

سيِّدتى . . . ! لماذا تبْكينَ ؟ !

رفعتِ السيِّدةُ رأسَها فى دَهْشةٍ ، فوقعَ نظرُها على « بُوتُون » ، فقالتْ :

أنا زَوْجةُ مَلِكِ البَحْرِ . . . ابنتى مريضةٌ . . . مريضةٌ جِدًّا ! ما أكْثرَ مَن استشرْنا من الأطبَّاء ! ولكنْ لم يستطِعْ أحدٌ أن يَشْفيَها ! وما أكثرَ ما تناولَتْ من الأدويةِ ! إنَّ بقايا هذه

الأدويةِ قد كوَّنتْ تلاًّ صغيرًا ، ومعَ ذلك سارتِ ابنتى من سيِّئٍ إلى أسْوأ . . . إنها الآنَ تُحْتَضرُ ! إنها الآنَ تموتُ ! إنّنى لا أُريدُ أن أرَى ابنتى وهىَ تموتُ ، ولذلك فرَرْتُ إلى هذا المكانِ !

قال « بُوتُون » :

ما مَرَضُها ؟

أجابتِ السيِّدةُ وهىَ تبْكى :

ذاتَ يومٍ وَلَدْتُ محارةً كبيرةً ، وعندَما فتحْنا هذه المحارةَ وجَدْنا فى داخلِها طِفلةً صغيرةً ، هذه الطِّفلةُ الصغيرةُ هىَ ابنتى المريضةُ الآن ! مُنذُ أيامِ طُفولتِها وهىَ تُحِبُّ هذه المحارةَ الكبيرةَ ، وتلْعَبُ بها لَيْلَ نَهارٍ ، وكانتْ تبْكى دُونَ انقطاعٍ إذا ما غابتْ هذه المحارةُ عنْ بَصرِها . . . وذَهَبتْ يوْماً لزيارةِ خالِها ، ولَمْ تَعرِفْ أينَ سقطَ منها نِصْفُ هذه المحارةِ ، ومُنْذُ ذلك اليوْمِ وهىَ مريضةٌ .

عِندَ ما سمِع « بُوتُون » هذه القِصَّةَ قال باسماً :

أَنا طَبيبٌ ماهِرٌ ! إِنى أَسْتطيعُ أَن أَشْفِىَ الأَميرَةَ ! أَرجُو أَن تُساعدينى على فكِّ قيودى !

فأَسْرعَتْ مَلِكةُ البَحْرِ ، وَفكَّتْ قُيودَ « بُوتُونَ » ، وقالَتْ :

إِذا اسْتطعْتَ حقًّا أَن تَشْفِىَ مرضَ الأَميرَةِ ، فإِنَّ المَلِكَ سَيُهْدى لك هَدايا كَثيرةً جدًّا .

تَبِعَ « بُوتُون » الْمَلِكةَ إِلى قَصرِ مَلِكِ البَحْرِ . . .

يا لَعَظَمَةِ القَصرِ وَفَخامَتِه !

مِنَ الحجارَةِ الكَريمَةِ النَّوافذُ وَالعُمُدُ ...

أَمَّا السُّقوفُ والجُدرانُ فَمِنْ خالِصِ الذهَبِ ...

وَمِنَ العَقيقِ الأَحْمرِ قدْ صُنِعَ مِصْراعا البابِ ...

وإِنهُما لَيعْكِسانِ أَشعةً حمراءَ مُدهشةً !

دَخلَتِ المَلِكةُ القَصرَ يَصْحَبُها « بوتون » ، وعِندَ ما أَبْصرا الْملِكَ قالَتِ الْمَلِكةُ :

لقَدْ أَحضَرْتُ طَبيباً ماهِرًا ليُعالِجَ ابنتَنَا !

فأَجابَ الْملِكُ فى سُرُورٍ :

أَسْرِعى وخُذيهِ إِلى غُرفتِها فوْرًا !

أَخَذتِ الْمَلِكةُ « بوتون » إِلى حُجْرةٍ أُخْرى جميلَةٍ ، وعِند ما رَفعَ « بوتونُ » رأْسَه رأَى أَمامَهُ فتاةً فتَّانَةَ الْحُسنِ ، مُغْمضَةَ الْعَيْنيْنِ ، يرتفعُ صدرُها ويَهْبِطُ فى سُرعَةٍ وكأَنها أَوْشَكَتْ عَلَى الموْتِ ، وكانتْ تُطْبِقُ يدَها بقُوَّةٍ على نِصْفِ مَحارَةٍ .

وأَشارتِ المَلِكةُ إِلى الفتاةِ ، وَقالَتْ :

هذِهِ بِنْتِى ! هَيَّا افْحَصْها بسُرْعةٍ !

فدنَا « بوتون » منَ الفتاةِ ، وَأَخرجَ المَحارةَ مِنْ أُذُنِه ، وَقالَ :

يَا نِصْفَى المَحارةِ . . . كونَا مِنْ حَجمٍ واحدٍ . . . وَاجْتمِعا كزَهْرةٍ .

وَضمَّ « بوتونُ » نصْفَ المَحارةِ الذى فى يدِهِ إلى نِصْفِ المَحارةِ الذى فى يدِ الأميرَةِ وسُمِعَتْ قرْقعةٌ ، وَالْتصق النِّصْفانِ بقُوَّةٍ ، وكَوَّنَا محارَةً كاملةً .

وَما إنْ حدَثَ ذلكَ حتَّى فتَحتِ الأميرَةُ عَيْنَيها ، وَأمْسكَتِ الْمَحارَةَ بِكلْتَا يَديْهَا ، وَظهرَتْ على وَجْهِها علاماتُ السُّرورِ .

انْدَفعَتِ الْملِكةُ إلى ابنتِها وَضمَّتْها إلى صدْرِها ، وَقالَتْ وهيَ تهُزُّ رأْسَها فى سُرُورٍ :

يا بِنْتِى العزيزة ! هَذا هُوَ الطَّبيبُ الذى شَفاكِ !

ونظَرَتْ إلى « بوتونَ » نَظرةَ شُكْرٍ وَتقديرٍ ، ثمّ طَلبَتْ إليْهِ أنْ يجلِسَ إلى جانبِ السَّريرِ وأنْ يُحدِّثَ ابنتَها بقِصَّتِهِ .

جلسَ « بُوتُون » وَقصَّ قِصَّتَهُ مِنْ بِدايتِها إلى نِهايتِها ، فقالتِ المَلِكةُ :

إنَّ « شارِبَ الدِّماءِ » رجلٌ شِرِّيرٌ ملعونٌ !

وَنَظَرَتِ الأميرَةُ إلى « بُوتون » ، ثمَّ قالتْ لِأُمِّها فى اضْطِرابٍ :

أمى ! دَعِينى أذْهَبْ معَ الطَّبيبِ إلى الأرْضِ ، لنقتُلَ « شارِبَ الدِّماءِ » . . . وبعدَ أنْ نَقْتُلَهُ . . .

قالتِ الأمُّ :

ماذا ستفعَلين ؟ !

لقد فَهِمَتِ الْمَلِكةُ الآنَ رَغبةَ ابنَتِها ، وكانت المَلِكةُ نفسُها راضيةً كلَّ الرِّضا عن « بوتون » ، لأنه أنقذَ حياةَ ابنتِها ، ولأنها كانتْ تعتقِدُ أنَّه شابٌّ أمينٌ ، لكنَّ المَلِكَ كانَ قد وَعدَ أحدَ قُوَّادِه أن يُزَوِّجَهُ منَ الأميرَةِ . فماذا تَصْنعُ ؟

بَيْنما كانتِ الْمَلِكةُ تُديرُ فِكرَها فى هذا الأمْرِ دَخَلَتْ سَيِّدَةٌ عَجُوزٌ ، وقالتْ :

إنَّ الْمَلكَ يرَى أنهُ — وَقدْ تَمَّ شِفاءُ الأميرةِ — يجِبُ أنْ يُغادِرَ الطَّبيبُ القصرَ فوْرًا ، ويُكافأَ ببعضِ الأحْجارِ الكريمَةِ !

وسمِعتِ الأميرةُ هذا ، فسالَتْ دُموعُها ، وَقبَضتْ على يدِ

«بوتون» بِشِدةٍ وقالتْ:

أُمى؛ لَنْ أَدَعَهُ يَذْهَبُ! سيَعودُ المرَضُ إلىَّ إنْ غادرَ الطَّبيبُ القصرَ!

أَمَّا «بوتون» فقدْ جلسَ ساكِناً، ولمْ يَنْطِقْ بحرْفٍ واحدٍ.

كانتِ الْمِلكةُ تُحِبُّ ابنتَها حُبًّا جَمًّا، وكانتْ تشعرُ بأنَّ هذا القائدَ الذى اختارَهُ لها أبوها ليْسَ جديرًا بها، وأنَّ «بوتون» جديرٌ بأنْ يتزَوَّجَ الأميرةَ، وهكذا قالتِ المِلكةُ للسَّيِّدَةِ العجُوزِ:

اِذهبى وأَخبِرى الْملكَ أَنى قد وَعدْتُ الطَّبيبَ أَنْ أُزوِّجَهُ ابنتى.

وبَعْدَ لَحظاتٍ عادتِ السَّيدةُ العجُوزُ قائلةً:

أَوامِرُ المِلكِ:

إنَّ الأميرةَ قدْ وَعَدَ القائدَ بها!

عَلَى الطَّبيبِ أَنْ يرْحلَ فوْرًا!

إذا لمْ يَفعلْ سيُرْسِلُ المَلكُ جُنودَه ليقتُلوهُ!

وإذا لَمْ تسْمحِ الأميرةُ للطَّبيبِ بالذَّهابِ فستُقْتَلُ معَهُ!

سمِعتِ الأميرةُ هذا القوْلَ، فامْتُقِعَ وَجْهُها، وَقبضَتْ على يَدِ «بوتون» بشِدَّةٍ؛ أمّا الملِكةُ فقدْ فكَّرَتْ لحْظةً ثمَّ قالتْ للسيِّدةِ العَجُوزِ:

أَخْبِرى المَلكَ بأنَّ عليْهِ أَنْ يطمْئِنَّ! لقدْ أَحْضرْتُ الطَّبيبَ إلى هُنا وَسأُخْرِجُهُ كما جئتُ بِهِ!

خَرجَتِ السيِّدَةُ العَجُوزُ مِنَ الغُرْفةِ، وَقالَ «بوتون»:

خَيْرٌ لى ولَكم أنْ أذهَبَ! إنَّنى لا أُحِبُّ أن أخْلُقَ المتاعِبَ للأَميرَةِ!

وأَمْسكتِ الأَميرةُ «بُوتُونَ» بكلِّ ما فى يدَيْها مِن قوَّةٍ، وَأَخذَتْ تبكى فى حُزنٍ، وقالتْ المِلكةُ:

يا بنتِى! نامى فى هٰذهِ المَحارَةِ بِسُرْعةٍ، وَسَيحْمِلُكِ الطبيبُ

إِلَى الأَرْضِ ؛ وَسَآتِى كَثِيرًا لِزِيارَتِكُما !

ثُمَّ قالَت المَلِكَةُ :

المَحارَةُ كَبِيرة . . . المحارةُ طَوِيلة . . .

يُمْكِنُ أَنْ تَرْقُدَ فِيها فَتاةٌ جَمِيلة .

وسُمِعَتْ قَرْقَعَةٌ ، وأَخَذَتِ المَحارةُ تَكْبَرُ ، وأَسْرَعَتِ الأَمِيرةُ فَرَقَدَتْ فِيها ، وَأَغْلَقَتْها المَلِكَةُ ، ووَضَعَتْها عَلَى كَتِفِ « بُوتُون » قائِلَةً :

يا بُنَيَّ ؛ احْمِل هٰذِهِ المَحارةَ وَاتْبَعْنِى !

٤

غادَرَتِ المَلِكَةُ الحُجْرَةَ ومَعَها « بُوتون » ، وأَصْبَحا فى قاعَةِ العَرْشِ ، وعِنْدَما رَأَت المَلِكَ قالَتْ لَه :

لَقَدْ شَفَى الطَّبِيبُ ابْنَتَنا ، وقَدْ أَهْدَيْتُ إِلَيهِ مَحارةً كَبِيرةً ، وَابْنَتُنا الآنَ تَنامُ فى حُجْرَتِها فى هُدوءٍ ! أَرْجُو أَلَّا تَذْهَبَ إِلَى هُناكَ وتُزْعِجَها ، سَأَصْحَبُ الطَّبِيبَ إِلَى الشَّاطِئِ ، ثُمَّ أَعُودُ فِى الحالِ !

كانَ المَلِكُ يُناقِشُ بَعضَ المَسائِلِ الهامَّةِ مَعَ مُعاوِنِيه ، فَلَمْ يُجِبْ بِأَكْثَرَ مِنْ هَمْهَمَةٍ غَيرِ مَفْهومَة .

وَصَلَتِ المَلِكَةُ ومَعَها « بُوتون » إِلَى سَطْحِ الماءِ ، فَفَتَحَت المَحارةَ ، وأَصْبَحَ نِصْفا المَحارةِ مُسْتَوِيَيْنِ على سَطْحِ الماءِ ، فَطَلَبَتْ مِنِ ابنَتِها أَنْ تَجلِسَ فى نِصفِ المَحارةِ وطَلَبَتْ مِنْ « بُوتون » أَنْ يَجلِسَ فى النِّصفِ الآخَرِ ، وتَحَسَّسَت بِأَصابِعِها

أَطْرافَ المَحارةِ ، وَسالَتِ الدُّمُوعُ غَزيرَةً مِنْ عَينَيها ، وكانَتْ الدُّموعُ تَرِنُّ فى قاعِ المحارةِ ثم تَتحَوَّلُ إلى لآلِئَ لامِعَةٍ .

قالَتِ المِلكةُ وهىَ تَبكِى :

يا وَلدىَّ ! أَتمنَّى لَكما أَيَّاماً سَعِيدةً ! فَلْتَكنْ هٰذه اللآلِئُ هَدِيَّتى إليكما !

وَتَأَثَّرت الأَميرةُ لِبُكاءِ أُمِّها وَ بَدَأَتْ تَبكى أيضاً .

وقالَتِ المِلكةُ :

أَيها القاربُ المحارِىُّ العَطِر . . .

انقُلِ العَرُوسَينِ إلَى بَيتِهما .

وهَبَّتْ رِيحٌ لَطِيفةٌ دَفَعتِ القاربَ بخفَّةٍ إلى مَجرَى النَّهرِ ، وعادَ « بُوتونُ » والأَميرةُ إلى أرضِ الوَطَنِ ، وذَهَبا فَوْرًا إلى « شارِبِ الدِّماءِ » لِيُحاسِباه على ما قدَّم إلى « بوتون » .

وعِندما رَآها « شارِبُ الدماءِ » أَخذ يَتفَحَّصُهُما بِعنايةٍ ، فعرَفَ أنَّ الرَّجلَ هُوَ « بُوتون » فقالَ :

« بُوتُون » ! هَلْ أَصْبَحْتَ غَنِيًّا ؟ !

أَخبَرَ « بُوتُون » « شاربَ الدِّماءِ » بكلِّ ما حدَثَ ، وبعْدَ أن سَمِع القِصَّةَ كلها نَظر إلى الأَمِيرةِ الْجَميلةِ فى شَغَفٍ وقال ساخِرًا :

« بوتون » ! مِنْ أَجْلِ صَداقتِنا القَديمةِ أَرْجو أنْ تَأخُذَنى فى رِحْلَةٍ إلى قَصرِ مَلِكِ البحرِ ! رُبَّما زَوَّجَنى ملكُ البحرِ أَميرةً مِن بَناتِه . . . ها ها . . .

شَعرَ « بوتون » بنارِ الغَضَبِ تَسْرِى فى عُروقِه ، وتَحفَّزَ يُريدُ الكلامَ ، ولكنَّ الأميرةَ أَشارَتْ إليه بأنْ يَصمُتَ ، وقالتْ :

هٰذا حَسنٌ ! ما زالَت لِى أُختٌ أَكبر مِنِّى ! سَنذْهبُ معك !

سُرَّ شاربُ الدماءِ عِندما سَمِعَ هذا ، وأَخذ يَضحكُ حتَّى أنَّ عَينَيهِ اللَّتَينِ تُشبِهانِ عَينَى الخنزيرِ أَصبحَتا كخطٍّ رَفيعٍ فى وَجْهِه ، وَانحَنَى أمامَ الأميرةِ قائلاً :

أَيَّتُها الأميرةُ ! أَنتِ فَتاةٌ مُدهِشة !

ونَظرَ « بُوتُون » إلى الأميرةِ غاضباً وفَـكَّرَ :

تُرَى لماذا تُريدُ أنْ تُزَوِّجَ أُخْتَها مِن هذا الرجُلِ ؟ إننا لا نَستَطيعُ أنْ نَعودَ إلى قَصرِ الملِكِ على أيَّةِ حالٍ !

وَاشْتدَّ غَضبُ « بوتون » وفَتحَ فَمه يريدُ الـكلامَ ، ولـكنَّ الأميرةَ أَسرَعتْ فقرَصتْه فى فَخذِه ، وأشارَتْ إليه بِعَينِها ، ففَهِم وسَكت .

قالت الأميرةُ :

فَلْنَجْلسْ فى المَحارَةِ ، ونَذْهب إلى القصْرِ .

ووَضَعَت المحارةَ على الأرضِ ، ثمَّ قالت لها :

مَحارَتِي . . . محارتى . . . تحوَّلِي .

تحوَّلى . . . قاربَيْنِ . . . تحوَّلى .

وسُمِعتْ قَرْقعَةٌ ، ثمَّ أَصبَحَت المحارةُ قاربَيْنِ ، وقالت الأَميرةُ لِخادِمَيْ « شاربِ الدماءِ » :

ضَعَا القاربين فى النهر... سنذهب جميعاً إلى قصر ملك البحر!



وارتفع نصف المحارة الخالى ؛ ثم انقلب وغطى النصف الآخر . . .

أسرعَ خادِما شاربِ الدِّماء، وحَملا القاربَينِ إلى النَّهرِ، وقالت الأميرةُ:

هيَّا لِنَرْكَبَ... أنتم الثَّلاثة تركَبُونَ قاربًا، وأنا و «بوتون» نَركبُ القاربَ الآخرَ.

ولمّا بَلغَ القاربانِ وَسطَ النهرِ قالت الأميرةُ:

أوه... لقدْ نَسِينا بعضَ الأشياءِ على الشاطِئ!

وجَذبَتْ «بوتونَ»، ودارا إلى الوَراءِ، وبِقفْزةٍ واحدةٍ أَصبحا على الشاطِئ.

وقالت الأميرة بصوت مرتفع مخاطبة محارتها التى فى النهر:

يا نصفَي المَحارةِ! انْطبَقا بِشدَّةٍ!

انْطبقا بسُرْعةٍ... واسْحَقا هؤلاءِ المَلاعِينَ!

وسُمعتْ قَرْقعةٌ، وارْتفعَ نِصفُ المحارةِ الخالى، ثم انقلبَ وغطَّى النِّصفَ الآخرَ الذى يَجْلسُ فِيه «شاربُ الدماء» وخادِماه...

وفَزِع الثلاثةُ واصفرَّت وُجوهُهم، وأخذوا يَصيحونَ

مستَغيثين، ولكنَّ المحارةَ ضَغطتْ عليهِمْ بقُوَّةٍ، وأخذتْ تَطْحَنُ الأشْرارَ الثلاثةَ...

ما أكْثرَ ما شَرِب هذا الرَّجلُ وخادِماه مِن دِماءِ الفلّاحينَ!

وَقفت الأميرةُ و «بُوتُون» على الشاطِئِ جَنْبًا إلى جنبٍ يَنْظُرانِ، ويَرْقُبانِ، ويَبْتسمان. وانْسابتِ الدماءُ مِن المحارةِ، واختلَطَتْ بماءِ النهرِ، فاصطَبغَ النهرُ باللَّوْنِ الأحمرِ، ومُنذُ ذلكَ الوقتِ أصبحَتْ مِياهُ النهرِ الصّافيةُ مياهاً حَمْراء، وهكذا أطْلقَ عَليهِ الناسُ اسْمَ: النَّهْرُ الأَحْمَر!

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

حكايات صينية



النهر الأحمر

دار المعارف بمصر